اصول التاريخ

بقلم حضرة الامير امين مجيد ارسلان

ان هذا البحث طويل وسيأتي فيه على اجمال بدلاً عن تفصيل فنقول . التاريخ في اللغة تعريف الوقت والمراد به هنا معرفة الاخبار الزمانية وادراك الحوادث والامور التي وقعت في الاعصار الغابرة والقرون الماضية وموضوعهُ معرفة احوال الاشخاص الذين كان لهم مقام في الدنيا وفوائدهُ عديدة منها العبرة بتلك الاحوال الماضية والانتصاح بها والسير بمقتضى حكمتها الاحتراز عن ركوب المزلات والمفالط . وقد قسموا التاريخ الى قسمين عمومي وخصوصي فالعمومي يتضمن تاريخ البشر عمومًا وقسمهُ المؤرخون الى اربعة اعصر (١) العصر القديم منذ الخليقة الى سقوط مملكة الرومان وانقراضها سنة ٤٧٦ (٢) عصر القرون المتوسطة منذ سنة ٤٧٦ الى سنة ١٤٥٣ وهي السنة التي فتح بها السلطان محمد الفاتح القسطنطينية (٣) عصر القرون المتأخرة من سنة ١٤٥٣ الى سنة ١٧٨٩ (٤) العصر الحالي وهو يبتدىء من سنة ١٧٨٩

والتاريخ الخصوصي يشمل التاريخ المتعلق بموضوع واحد كمملكة او ولاية او مدينة او دولة او عائلة او شخص . والمتعلق بشخص واحد يسمى ترجمة او سيرة

واصول التاريخ اي اركانهُ اربعة اخبار وحوادث وآثار واشعار لان الدليل اما ان يصل بالسمع او النظر والاخبار اما ان تكون مقصودة للاستدلال او لا فان كانت مقصودة للاستدلال فخبر والاَّ فشعر والثاني اي الحادث اما ان يكون موضوعًا لذلك فاثر والاَّ فحادث . وكثيرًا ما يقع التعارض بين الادلَّة لانها مختلفة المصادر والموارد ولا بدَّ حينئذٍ من وقوع التخالف بينها في الاثبات ولهذا لا يمكن اثبات احد الامرين فيعمل بالارجح وسيأتي ذكر جهات الترجيح

قلنا ان اصول التاريخ اربعة اولها الاخبار جمع خبر وهو ما ثبت بنقل اللسان وفي الاصل كان مخالفة لا مراسلة وشرط الخبر اجتماع شروط الرواية على اختلاف طرقها ولهذا لا يكون الخبر معتبرًا الاَّ اذا تحقق وجود المسند اليه وبهذا يظهر فساد بعض الاخبار المسندة الى المجهول . وطريقة اتصال الخبر هو ان يروي الواحد عن الآخر ويشترط في نقلهِ الصدق وينبغي ان يكون الراوي على ثقة من حفظهِ ولهذا يحسن التقييد بالتذكر ويفيد هذا الطريق الظن ما لم يعان بقرينة فيفيد اليقين وذلك كما في خبر

انهدام بيت رجل مع اثر الانهدام ولا يشترط فيه تعيين عدد الرواة وانما ينبغي ان يكون بحيث لا يحتمل تواطئهم على الكذب . ويفيد هذا الطريق اليقين ما لم يقترن بشبهة فيفيد الظن كما لو اخبر جماعة بان فلانًا قد مات وكان لهم في موته منفعة . وقد يتفاوت الخبر بحسب مرتبة المروي عنه اي المنسوب اليه ثم الراوي اي السند

. ثانيها الحوادث جمع حادث وهو ما ثبت بنظر العيان واصوله ان يكون بالمعاينة لا بالمخابرة وان يقول المعاين شهدت في محل كذا الواقعة الفلانية مع تعيين الوقت اذا امكن . والحوادث قد تصير بالنقل اخبارًا . والمدوَّن في غير زمن الوقوع ان كان عدلاً وغير متهم يعتبر كالمشاهد وان كان المدوِّن متهمًا وغير عدل كان حكمه حكم الخبر الكاذب ولا يوثق به

ويلحق بما يدون في زمن الوقوع الجرائد وهي اذا كانت حرة اعتبرت بانها لسان حال الامة والحامية عنها والحافظة على حقوقها والموطدة لاركان الامن في الدنيا فقد شهد بسارك غير مرة بان مكاتب جريدة التيمس في لندن تحافظ على السلم في اوربا وكفى بذلك برهانًا لاظهار اهمية الجرائد وعظم نفعها ولكن بعض الدول قد تكتسب اصحاب الجرائد بالرشوة لتأييد اغراضها مهما كانت فتلجم الجرائد ويبطل نفعها . ولهذا وجب على القارىء وخصوصًا على المؤرخ النظر فيها وان يعرف صفة منشئها وغرضه ومحل طبعها والسبب الموضوعة لاجله ليعرف صدقها من كذبها وغثها من سمينها لان اسباب الكذب متوفرة منها " الذهول عن المقاصد فكثير من الناظرين لا يعرف القصد بما عاين وسمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب ومنها توهم الصدق وهو كثير وانما يجيء في الاكثر من جهة الثقة بالناقلين ومنها الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التلبيس والتصنع فينقلها الخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه ومنها تقرب الناس في الاكثر لاصحاب النحلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بها على غير الحقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطلعون الى الدنيا واسبابها من جاه وثروة وليسوا في الاكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في اهلها "

. ثالثها الآثار جمع اثر وهو ما وجد من الآثار القديمة العهد من حجر او معدن على اشكال متنوعة فيدخل تحت هذا التعريف النواميل والمعابد والمباكل والاهرامات والنواويس والنقود وما اشبه ولاجل ان تصلح للاستدلال يجب ان يعرف العامل

والمعمول لاجلهِ وذلك يكون اما بواسطة الارقام او الرسوم . قيل الآثار احسن طريقة للاستدلال على حقيقة الوقائع والحوادث القديمة بشرط ان تكون غير قابلة الانكار وسلّم بها ولا اعتبار عمومًا لما يوجد بلا رسم ولا رقم . وهذا يجب ان يكون بحرف ولو غير معروف والاّ فان لم يكن بحرف فاشارة . والاثر على نوعين ثابت في مكانهِ اذا كان يتعذر نقله كاهرامات مصر وقاعة بعلبك ومنتقل اذا لم يتعذر كالنواويس والمسلات التي نقلت الى اوربا . هذا ويحدث بان اكتشاف هذه الآثار يكون واسطة لاثبات بعض الحوادث التاريخية او لنفيها ومنها ما يسبب تغييرًا كليًّا في التاريخ مثال ذلك ما جاء في المقتطف الاغر في المجلد الثاني عشر عن الآثار التي اكتشفت في جوار صيدا منذ عامين وهو " ان جماعة من علماء العاديات العارفين بالآثار وهم قن رادفنس والدكتور مرتن والاستاذ غربلا نظروا الى هذه النواويس فذهبوا الى ان اجملها نقشًا وابدعها تصويرًا هو ناووس قائد من قواد اسكندر ذي القرنين الذين قاتلوا الفرس معهُ وخالفهم غربلا المذكور وذهب الى انهُ ناووس ذي القرنين نفسهِ لا بعض اعوانهِ لادلّة شتى منها ان عدة الاسكندر في الحرب والجلاد منقوشة على ذلك الناووس ومنها ان واقعتهُ مع الفرس مرسومة هناك وغلبتهُ على اسيا الصغرى وصيدهُ في سوسه وغير ذلك هذا والشائع ان الاسكندر دُفن في الاسكندرية واما غربلا فينفي ذلك محتجًّا بان الجم الغفير من المؤرخين المدققين ارتابوا في صحتهِ . وقد راقت ادلّة غربلا في اعين رفقائهِ فعدلوا عن رأيهم واعتصموا برأيهِ فاذا صحّ ذلك كانت صيدا هي مدفن الاسكندر لا الاسكندرية وكان بحث ناليسن عن تابوتهِ في الاسكندرية جهدًا على غير جدوى وتعبًا على غيرطائل "

اما الآثار العظيمة التي لا يوجد بها رسم ولا رقم فانها جعلت غموضًا في التاريخ القديم فان كل من يذهب الى بعلبك مثلاً ويشاهد آثارها الهائلة العجيبة يتشوق لمعرفة تاريخها ويود ان يستطلع على ما كانت عليهِ هذه المدينة في اوائل زمانها وتاريخ بنائها وسبب اقامة قلعتها العظيمة الشان الى غير ذلك من الامور الغامضة التي ارتبك العلماء في امرها ودققوا البحث اكي يقفوا على صحة تاريخها ومن بعدها فلم يصلوا الى نتيجة اكيدة لانهم لم يعثروا على شيء مرسوم او مرقوم سوى انهُ لما استولى يوليوس قيصر عليها في اواسط القرون الاولى ق . م . جعلها من المستعمرات الرومانية وفي ايام اغسطوس كان بها حامية من الرومان بدليل كتابة فيها

رابعاً الاشعار وشرط كونها تصلح للاستدلال ان تتضمن امراً مهماً من ذكر حادثة او اسم ذي شأن ولا يشترط في القصيدة المتضمنة حادثة ما الفصاحة فانه يمكن الاستدلال بغير الفصيح الاّ ان الفصاحة تعتبر عند الترجيح لانه اذا حُذف من القصيدة بيت او شطرٌ وأُدخل من غير ناسج بردها عُرف غالباً لاختلاف النَسج . واول من نظم الحوادث في الشعر على ما نعلم هوميروس الشاعر اليوناني ولهذا لقب باول المؤرخين وعند العرب اشعار ومقاطيع كثيرة تتضمن ذكر بعض الحوادث واشهرها على ما نعلم قصيدة عمرو بن عدي اللخمي التي يذكر بها خالة جذيمة الابرش ومطلعها

الا يا ايها الغر المرجى الم تسمع بخطب الاولينا

وهي طويلة استوفى فيها ذكر القصة واكثر المؤرخين يستندون من هذه القصيدة عند ذكر هذه الحادثة . اه

هذا وقد يستدل بامّة خاصّة لا تصلح للاستدلال الاّ في مواضع معينة توافق مقصدها وهي اما ان تكون صحيحة او فاسدة فالاولى كالمعاهدات الدولية والفرامانات والمراسلات العلمية والسياسية وما اشبه ذلك فانه يستدل بها في كثير من الاحوال و يشترط لصحتها ان تكون بالذات ويجري مجراها قيد السجلات المحفوظة في مواضعها والثانية كالشهرة في الصيت والذكر فانها لا تصلح للاستدلال في الغالب لانها تكون بمنزلة الاخبار

بقي علينا الآن ان نتكلم عن الترجيح والتعارض فنقول اذا ورد دليلان يخالف احدهما الآخر فهما اما ان يتساويا قوةً او لا فان تساويا فالاختيار فيهما بالعمل والاّ فان كان احدهما اقوى يعمل بالاقوى . والمعارضة تكون اما بين الاخبار والحوادث والآثار والاشعار او بين الحوادث والاشعار او بين الآثار والاشعار فينتج معنا ثلاث صور مقابلة الترجيح . فانه اذا تعارضت الاخبار والحوادث يترجح المشاهد على المسموع لانتفاء الشك عنه لم المدون في زمن الوقوع على المنقول لقرب العهد او ان المعارضة تكون بين الاخبار والآثار وحينئذٍ يرجح الاثر على الخبر لانه ابعد عن التبديل او بين الاخبار والاشعار فيرجح الشعر على الخبر لانه ابعد عن التغيير . واذا كانت بين الحوادث والآثار يرجح المشاهد على الاثر الموضوع والاّ يرجح الاثر عليه . واذا كانت بين الآثار والاشعار يرجح الاثر على الشعر واذا تساويا بين الادلّة في الاعتبار فيختار احدها عند الاستواء والاّ يعمل بالاقوى منها

هذا والمعادل يكون بين الاخبار والحوادث والآثار والاشعار فينتج معنا اربع صور

تخالف في الترجيح لانهُ اذا كان التعادل بين الاخبار وانواعهِ فهو اما ان يكون بين الكتب او بين الاخبار فيرجح في الاول لانهُ ابعد عن الشك او بين الثاني فيرجح متنًا ثم سندًا لان المتن خاتي والسند عرضي او بين الاثار فيرجح الظاهر على الخفي ثم الحجري على المعدني لانهُ ابعد عن الوضع ثم الثابت على المتنقل . والترجيح يكون ايضًا بين الحوادث وهو اما ان يقع بين المشاهد وغيرهِ فيرجح المشاهد ان لا شك فيهِ او بين المدون في زمن الوقوع وغيرهِ فيرجح المدون في زمن الوقوع لقرب العهد . ويقع ايضًا بين الاشعار وهو يكون اما بين المشهور وغيرهِ فيرجح المشهور او بين الافصح وغيرهِ فيرجح الافصح لانهُ ابعد عن الشك

لافوازيه ابو الكيمياء الحديثة

لم يلج الناس ابواب الحضارة ولا تقدموا في سبيل العمران الاَّ بواسطة قوادهم الذين فتحوا لهم الابواب ومهدوا امامهم السبل . ومن هؤلاء القواد الذين لن تمحى اسمهم من سجل العمران لافوازيه العالم الفرنسوي الملقب بابي الكيمياء الحديثة

ولد هذا الرجل في السادس والعشرين من شهر اغسطس (اب) عام ١٧٤٣ وكان ابوهُ تاجرًا غنيًا فانفق على تعليمهِ في احسن مدارس بلادهِ . وكان لافوازيه نجيبًا يحب العلوم الرياضيَّة والطبيعيَّة فقرأ الرياضيات وعلم النبات والمعادن والجيولوجيا والكيميا على افضل اساتذة عصرهِ وتعلَّق ايضًا على درس الميتورولوجيا ولبث يرصد الجو ويدوّن الارصاد الجويَّة مدة حياتهِ

وزاد شغفهُ بالعلم حتى هجر الاصدقاء والخلان وانقطع الى الدرس وهو في العشرين من عمرهِ . وكان لهُ صديق نباتي كان عازمًا ان يصنع خريطة لبلاد فرنسا والبلدان المجاورة لها يبين فيها ما في الارض من الاتربة والمعادن فجال لافوازيه معهُ لهذه الغاية مدة ثلاث سنوات وتحص في غضونها طبقات الجبسين التي في ضواحي باريس وكتب في هذا الموضوع كثيرًا مدة ثلاثين سنة وهو اول من بيَّن سبب تصلب الجبسين بعد حرقهِ وجبلهِ بالماء

وسنة ١٧٦٥ عينت اكاديمية العلوم جائزة مقدارها الفا فرنك لمن يستنبط احسن واسطة لاضاءة شوارع المدن الكبيرة . فعقد قلبهُ على نوال هذه الجائزة واخذ من ساعتهِ